

## لبنان سليم عبو اليسوعي: المقاومة الثقافية التي لا يخلو خطابها من العنف

الأب صلاح أبو جودة اليسوعي - أستاذ في الجامعة اليسوعية

كان الأب سليم عبو يُدرك حدود الميثاق الوطني في صهر اللبنانيين وجعلهم بوتقةً واحدة، وطالما كرّر في مجالسه الخاصة وأوساطه التربوية والثقافية اقتناعه بضرورة تلاقي اللبنانيين على حقوق الإنسان، لما تمثّله من أرضية مشتركة يمكنها أن تعزّز "النموذج النفسي" الذي، بحسب رأيه، يطبع اللبنانيين جميعاً بفضل تقولهم وفقاً لمعطيات لبنان الجغرافية التي تفترض أيضاً عناصر روحية معينة. كما أثار غالباً أهمية إقرار قانون الزواج المدني بصفته مدخلاً فعلياً لكسر البنية الطائفية الجامدة التي تمنع المجتمع اللبناني من دخول الحداثة. ونظراً إلى واقعيته، كان يعلم أنّ نموّ وعي اللبنانيين هذين البُعدين عملية تتطلب مساراً تربوياً طويلاً. وانطلاقاً من قناعته هذه، لم يكن يطبق أيّ انحراف عن محورية الميثاق - الضمانة لاستقلال لبنان وخصوصيته، والأساس الذي يمكن عليه قيام لبنان المستقبل.

لقد كانت هذه قضية حياته. ففي أعقاب أزمة ١٩٥٨، التي برزت في أثنائها وفي أعقابها شعارات التيارات القومية العربية التي نادى بضرورة تنقية العالم العربيّ من رواسب استعمار الغرب وتدخلاته، ذكّر الأب عبو بأنّ التعرّض لازدواجية ولاء لبنان الثقافيّ العربيّ - الغربيّ يعني نقض شخصية لبنان الثقافية الخاصة وضرب لبنان الميثاق في صميمه، إذ إنّ إرادة العيش معاً التي تُترجم في الميثاق هي على صلة عضوية بواقع لبنان الثقافيّ الخاصّ. بالطبع، تبقى هذه الازدواجية شيئاً ذا حدّين: فإنّها، من جهة، تؤدي إلى تحسين مستوى المؤسسات التربوية والاجتماعية بفضل تلاقي عناصرها وتفاعلها لما هو خير هذه المؤسسات؛ وتُثير، من جهة ثانية، نزاعاً إيديولوجياً على الظاهرة نفسها. ذلك أنّ اللغة بصفقتها الناقل الثقافيّ تحمل قيماً إنسانية ودينية وخبرات متنوّعة تؤثر في طريقة فهم البلاد نفسها. فلا عجب، على سبيل المثال، أن يصبح تاريخ لبنان موضع خلاف أو موضع تفاسير متعارضة. فهل يكون الحلّ، إذًا، بالقضاء على إحدى اللغتين: العربية أو الفرنسية، وقد اكتسبت الأخيرة مكانة متزايدة الأهمية في الوسط المسيحيّ اللبناني بفضل عمل المرسلين والإكليروس المحليّ؟ إذا كان للغتين أثرهما في القيم الوطنية والثقافية أحياناً سلّماً وأحياناً إيجاباً، فإنّ مراعاة تعايشهما وتفاعلها في إطار الميثاق الوطني لا ينفصل عن احترام شخصية الأمة اللبنانية الثقافية الخاصة. وبكلام آخر، لا يمكن فصل إرادة العيش معاً عن وعي اللبنانيين واقعه الثقافيّ المميّز. فمن خلال التمسك بهذه

الخصوصية، يمكن النظر بتفاؤل إلى المستقبل، أي إلى التطور التدريجي الذي يلحق بلبنان حقوق الإنسان والحرية الفردية. لذا، يجب الحفاظ على ما يوفر الإطار السليم لهذه الخصوصية، أي الميثاق الوطني، أيًا كان الثمن؛ إذ إن نهائية الكيان اللبناني مرتبطة به وبطريقة فهمه الميثاق المنفتح على شروط التطور.

فلا عجب إذاً أن يتسم خطاب الأب عبو المرتكز دومًا على أسس فلسفية وإنتروبولوجية متينة، بجرأة لا تخلو من الحدة، بل ومن العنف أحيانًا، إزاء كل مشروع أو سياسة أو إيديولوجيا ترمي إلى القضاء على خصوصية لبنان، أو ضمّه إلى كيان آخر، أو إلحاقه بسياسة خارجية، أي جعله تابعًا أو خاضعًا لمرجعية خارجية.

وفي هذا السياق، ثار الأب عبو على ثقافة الصمت والخوف والخضوع التي بدأت تترسخ في الوسط اللبناني مع اكتمال الوصاية السورية على لبنان في أعقاب اتفاق الطائف، فانتقد في العام ١٩٩٧ الخطاب الإيديولوجي الذي كان ينادي بتعريب الثقافة اللبنانية؛ وفي العام ١٩٩٩، انتقد بشدة السيطرة السورية التي كانت تحاول إلغاء استقلال لبنان وخصوصيته، وهذا موقف درج على تكراره في جميع خطابه، ولا سيما تلك التي كان يلقيها لمناسبة عيد جامعة القديس يوسف أثناء توليه مهمات رئاستها (١٩٩٥-٢٠٠٣)، وكان لهذه المواقف دورها الرائد في إيقاظ الوعي الوطني من سباته، وإبراز أهمية المقاومة الثقافية التي تبقى أشدّ فعالية من سياسة كمّ الأفواه وإلغاء الخصم، وفرض التفكير الأحادي، وتأليه القائد.

يندرج فكر الأب عبو، في الواقع، في إطار تيار القومية اللبنانية الذي تأسس مع ميشال شياح. لنترك جانبًا نظرية استمرار فينيقيا أمس في لبنان اليوم التي طبعت بعض نواحي هذا التيار الفكري، وما تفترضه هذه النظرية من "البنة" جميع مكونات المجتمع اللبناني وفقًا لعناصرها - وهي نظرية يجب أن تُفهم في إطارها الزماني وتحدياته الإيديولوجية؛ ولنضع أيضًا جانبًا مسألة حضور أو عدم حضور فكرة تأسيس وطن مستقل في سياسة فخر الدين والأمير بشير، وهي مسألة موضع تفاسير تاريخية كثيرة ومتناقضة؛ ولننتج حصر التلاقي الثقافي بمعناه الواسع في لبنان بالناقلين المتمثلين باللغتين العربية والفرنسية، لا سيما أن التعددية الثقافية تزداد منذ استقلال لبنان وتشتد منذ حدث العولمة، ولننظر إلى واقعنا الراهن بموضوعية: ألا يعيش اللبنانيون إلى اليوم في الوضع نفسه الذي ظهره تيار ميشال شياح الفكري واستمر مع سليم عبو؟ ألا يبقى لبنان بلدًا له خصوصية سياسية وثقافية في محيطه العربي، تفتح على مستقبل واعد بقدر ما تُفهم تلك الخصوصية تفاعلًا إيجابيًا بين الثقافات والأديان، يبحث عن خير المواطنين فحسب؟ وفي المقابل، ألا يبقى لبنان عرضة للأزمات الكيانية والتدخلات الخارجية بقدر ما تُفهم تلك الخصوصية سلبًا، أي وكأنها عناصر سلبية مكرهة على العيش معًا؟

تبرز إزاء هذا الواقع أهمية استمرار "المقاومة الثقافية" التي أطلقها الأب عبو. ذلك أنها تهدف إلى الحفاظ على لبنان ميثاقًا يتطلع إلى مستقبل تسوده حقوق الإنسان والحرية الفردية والانتماء الوطني الجامع. تبقى تلك المقاومة ضرورة في وجه السياسات التي تحوّل الناس إلى قطعان، وتنتشر ثقافة الموت التي تؤلّه القادة وإيديولوجياتهم، وتفسد المسؤولين وتنزع بهم إلى العيش في خبرات الماضي السلبية، وتغلب عند بعضهم

مصالح الدول الخارجيّة على مصلحة بلادهم، وتحطّ من الانتماء الوطنيّ، وتدفع بالشبيبة إلى الهجرة وقد نال منها اليأس من تحسّن ظروف البلاد. يجب ألا يموت لبنان ميشال شبحا وسليم عبوا!